أصول التفسير اللغوي للقرآن: المناهج والقواعد

الدكتور أبوبكر *

The etymological and lingual aspect of the Qur,an has been keenly focused on from the advent of Islam to present time. The knowledge of classical Arabic language is basic instrument to understand the meaning of Holy Qur,an as it was revealed in classical Arabic spoken by nomadic Arabs of that time. Someone who has no command over this classical language, will definitely fall in errors and distort the real meanings of the Qur,anic words. This research work deals with the importance of lexical interpretation of Holy Quran, its development in medieval centuries after Hijrah, methodologies of primitive theologians in lexical citation of Quran from classical poetry and prose with various examples from old books of *tafseer* . In the end, principles of lexical interpretation of Quran affirmed by primitive theologians has been elaborated and it has been analyzed that only the tool of language is not sufficient to understand the real meanings of Quranic words neglecting the traditional sources of *tafseer* like the *Sunnah* of Holy Prophet, events surrounding Revelation (*asbaab al-nuzul*) and explanation of the companions (*sahabah*).

قد اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية لغة و بيانا للقرآن الكريم و فيها من مزايا التعبير و البيان ما لم تحظ به لغة غيرها ،فاللغة العربية أسمى اللغات على الإطلاق كما ارتضاها الله تعالى أداة لوحيه المنزل على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى ثابت من النصوص القرآنية ومنها :

١ـقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١)

٢ـوقوله تعالى:﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٢)

٣ـوقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣)

٤ـوقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(٤)

قد أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم بقوله : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥) والتدبر لايأتي لمن يقرأ القرآن بغير فهم مفرداته ومعانيه حسب أساليب لغة العرب وهذا هو التفسير اللغوي.

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب لاهور

التفسير اللغوي: المراد من التفسير اللغوي بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب من ألفاظها وأساليبها التي نزل بها القرآنُ كما يقول الشاطبي (ت ٧٩٠هـ):''فإنْ قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وإ نَه عربي،وإنَه لا عج مة فيه، فيعني أ نه أنزل على لسان مءهود العرب في ألفا ظها الخا صة وأس اليب معانيها،وأنها فيما فطرت عل يه من لسا نها تخاطب بالعامِّ يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، وظاهر ويراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أوّل الكلام أو وس طه أو آخره---'' [٦].

والتفسير اللغو ي يحتوي على الجزئين ، الأول: تفسير الألفاظ و الثاني: تفسير الأساليب.

الأول– من أمثلة تفسير الألفاظ ، تفسير عمر بن الخطاب(ت٢٣هـ) لكلمة (زوجت) في قوله تعالى : ﴿واذا النفوس زوّجت﴾[٧] قال رضي الله عنه: (يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، و بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار [٨]. فقولهـ: (يقرن) تفسير لفظي لمعنى التزويج في الآية . وهذا هو أصل معنى اللفظ لغويا ، و "الزاء والواؤ والجيم : أصل يدل على مقارنة شيء لشيءٍ"[٩]. أو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ) في معنى كلمة (دهاقا) من قولهـ تعالى:﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[١٠] و لما سئل فيه، قال : (ملأى)[١١] و أصل معنى هذهـاللفظة :(الدال والهاءُ والقاف) : يدل على امتلاء في مجيء و ذهاب واضطراب ـيقال : أدهقتُ الكأسَ[١٢].

الثاني– و من أمثلة تفسير الأساليب ،تفسير أبي عبي دة(ت ٢١٠هـ) لقوله تعالى : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٣] قال : ''والعرب تختصرُ الكلام ليخفف وه لعلم المستمع بتما مه، فكأنه في تمام القول: ويقولون : "ربنا ماخلقت هذا باطلاً"[١٤].

والتدبر لايأتي لمن يقرأ القر آن بغير فهم لألفاظه ومعانيه، فكان التفسير هو النور الذي يبدد ظلام الج هل ويكشف للمسلم عن مراد ا لله بقدر مايسر الله لهذه العقول من فهم، وبقدر مامنحت من علم ،﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٥] والألفاظ تنقسم إلى : مفر دة و مركبة، و الألفاظ المفردة تنقسم إلى قسمين : الخاص

والعام :أما العام فهو ما يشترك في معرفته جمهور أه ل اللسان العربي. و أما الخاص فهو ما ورد فيه من الألفاظ اللغوية،والكلمات الغريبة التي لا يعرفها إلا من له اطلاع وتبحر في اللغة العربية[١٦]. فكان الا هتمام بمعر فة هذا النوع الخاص من الألفاظ أهم مما سواه وأولى بالبيان مما عداه، لذا اهتم به علماؤنا الأفلضل ومنحوه نفائس أوقاتهم خدمة لهذا الكتاب العزيز ويقول الإمام الراغب(ت ٥٠٢هـ):"إن أول مايحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظ ية تحقيق الألفاظ المفر دة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القر آن في كو نه من أوائل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه،وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القر آن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقه اء والحكماء في أحكا م هم وحكم هـ م وإلي ها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظ مه م ونثرهم، وما عد اها وعدا الألفاظ المتفرعات ع نها والمشتقات م نها هو بالإضا فة إليها كالقشور والنوي بالإضافة إلى أطايب الثمرة ،وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحرطة " [١٧] .

أهمية التفسير اللغوي:

إن معرفة اللغة العربية شرط في فهم القرآن؛ لأن من أراد تفسيره ،و هو لا يعرف اللغة التي نزل بها القرآنُ، فإنه لا شك سيقع في الزّلل، بل سيحرف الكلم عن مواضعهِ، كماحصل من بعض المبتدعة الذين حملوا القرآن على مصطلحاتٍ أو مدلولات غير عربيةٍ. تعد معرفة اللغة العربية من أهم الأدوات لفهم القرآن الكريم وتفسيره، إذ القرآن نزل باللسان العربي، فلا شك أنه لا يصح فهمه وتفسيره إلا عن طريق ذا ك اللسان الذي نزل به الروح الأمين على قلب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. ويقول الشاطبي (ت٧٩٠هـ): القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة، لأن الله تعالى يقول: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} (يوسف: ٢)، وقال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} (الشعراء: ١٩٥)، وقال: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}(النحل: ١٠٣)

وقال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ (فصلت: ٤٤). إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان

العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة[١٨].

وقال الإمام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ): "فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم... واللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله وفيما يكرهه، فلهذا أيضا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأولين، في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة"[١٩].

قال ابن فارس(ت ٣٩٥هـ):"إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن لا ريب أن معرفة اللفظة في القرآن الكريم هي اللبنة الأولى في فهم كلام الله تعالى، وهي من أول ما يستعين به المفسر في التفسير والتأويل ،ولقد ن به العلماء إلى وجوب معرفة وتعلم هذا الفن ووجوهه المختلفة[20].

فمن أغفل عن دلالة اللفظ أو جهل معناه في لغة العرب ،فقد وقع في الزلل كما نجد كثيرا من الأمثلة في كتب الأدب العربي . وقد حكى أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) عن الأخفش النحوي البصري (٢١٥)،أنه فسّر قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[21] من القدرة.

قال الأزهري (ت ٣٧٠): قال (أي : أبو حاتم):" ولم يدر الأخفش ما معنى نقدر، وذهب إلى موضع القدرة، إلى معنى: فظن أن يفوتنا. ولم يعلم كلام العرب،حتى قال : إن بعض المفسرين قال :أراد الاستفهام : أ فظن أن لن نقدر عليه.

ولو علم أن معنى نقدر: نضيق ، لم يخبط هذا الخبط. ولم يكن عالماً بكلام العرب،وكان عالماً بقياس النحو". ثم قال الأزهري (ت ٣٧٠هـ) : "و المعنى ماقدره الله عليه من التضييق في بطن الحوت، ويكون المعنى : ماقدره الله عليه من التضييق؛ كأنه قال :ظن

أن لن نضيق عليه، وكل ذلك شائع في لغ ة العرب، والله أعلم بما أراد . فأما أن يكون قوله: ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ في القدرة فلا يجوز ؛ لأن من ظن هذا كفر،والظن : شك ،والشك في قدرة الله كفر،وقد عصم الله أنبياء ه عن مثل ما ذ هب إليه هذا المتأول ـولا يتأوله إلا الجاهل بكلام العرب ولغاتها"[22].

فكل من فسر القرآن ،وهو جاهل بلغة العرب ،أو سالك غير طريقها ،فإنه قد وقع في الخطأ الأكيد، وجانب الصواب. و ينبغي هنا أن نعرف أن اللغ ة ليست المصدر الوحيد الذي يمكن لمن أحكم ه أن يفسر القرآن، إذن لا بدّ للمفسر من معرفة مصادر أخرى يعتمد عليها في تفسيره؛ كالسنة النبوية، وأسباب النزول، وقصص الآي، وأحوال من نزل في هم الخطاب، وتفسيرات الصحابة والتابعين وتابعيهم ،وغير ها من المصادر التي لايمكن أخذ ها عن طريق اللغ ة. و بهذا يعلم أن التفسير اللغوي جزء من علم التفسير ،ومع أن حيزه كبير، فإنه لا يستقل بتفسير القرآن[23].

التفسير اللغوي عند القدماء

إن القرآن حين نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان العرب يفهمونه ،لأنه نزل بلغة قريش وما نزل بغير ها وما لم يكن الصحابة يعرفونه يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عنه فيشرح ه لهم، فتنشرح صدورهم. وعلى ذلك سار الصحابة والتابعون.

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم شارحا و مفسرا لما أنزل إليه من ربه تعالى كما قوله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهِمْ﴾ [24] وأمثال علم غريب القرآن الأولى الشفوية نشاهدها في تفسير رسول الله لأصحابه الكلمات التي لم يعرفوا معناها من القرآن الكريم. إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا ، و كان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائل هم وتباين بطونهم وأفخاذ هم وفصائلهم، كلا من هم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون . فكأن الله عز و جل قد أعلمه ما لم يكن يعلم ه غيره من بني أبي ه، وكان أصحابه ومن يفد علي ه من العرب يعرفون أكثر مايقوله وما جهلوه سألوه عنه فيوضح ه لهم[25].

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر للصحابة من ألفاظ القرآن إلا ما احتاجوا إليه وهو قليل ، و إيضاحات رسولنا الكريم اللغوية في القر آن الكريم غالباً ماكانت رداً

لسؤال، وأكثر إيضاحاته ليست مشابه ة لإيضاحات أ هل اللغة والتفسير ،و هو يجيب حسب مستوي السائل ويفهمه المعنى من أقرب طريق بدون تطويل و في بعض الأحيان يأتي بمرادف الكلم ة أو يعرفها بالوصف،أو يبين ما هو المقصود منها، ويبين المعنى الشرعي للكلم ة[26]. وعلى سبيل المثال: عن عائش ة(ت٥٨هـ) رضي الله عن ها أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيتي: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[27] قال صلى الله عليه وسلم: الضيق[28]. وعن أم سلمة(ت٥٩هـ) رضي الله عنها قالت : يارسول الله أخبرني عن قول الله تعالى ﴿ وَحُورٌ عِينٌ﴾[29] قال :حور : بيض ،عين :ضمام العيون شفر الحوراء------(أترابا): على ميلاد واحد"[30]. وفسر النبي صلى الله عليه وسلم (عهدي) في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[31]كما روي عن علي بن أبي طالب(ت٤٠هـ) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ،قال صلى الله عليه وسلم : (عهدي) نبوتي[32] فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود ب(عهدي) هو :نبوتي. عن نواس بن سمعان (ت٦٧هـ) قال : فسألته عن البر والاثم ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البر :حسن الخلق،والاثم :ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس[33]. و إيضاح الرسول صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم(ت٦٧هـ) عندما أشكل عليه "الخيط الأبيض والأسود" و رواه الإمام البخاري في الصحيح في قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[34] ،ففسره ﷺ بأنه بياض الهار وسواد الليل[35].

إن الصحابة كانوا يتأولون القرآن على ما يفهمونه من لغتهم، لوضوح ذلك عندهم، فإذا أشكل عليهم من شيء سألوا رسول الله ﷺ،كما يظهر مما حدث بعدي بن حاتم(ت٦٧هـ) أو من حد يث ابن مسعود (ت ٣٥هـ)،قال: لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[36] قلنا : يارسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ قال : "ليس كما تقولون ،لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[37]"[38].

و الواضح من هذا الحديث أن الصحابة كانوا يجهدون في فهم القرآن، فلما أشكل عليهم منه شيء سألوا رسول الله ﷺ، وهذا ظاهر من هذا الحد يث ؛لأنهم

جعلوا معنى الظلم عاما على ما يعرفونه من لغتهم ،فأرشدهم النبي ﷺ إلى المعنى المراد به في الآية.

قد وقع بين الصحابة خلاف محقق في تفسير بعض المفردات القرآنية التي لها أكثر من دلالة لغوية نحو اختلافهم في لفظ :(القرء) في قول ه تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [39]،فقد ورد في معنى القرء قولان، كلا هما معتمد عل ى اللغة ،وهما:

الأول : فسّر جماعة من الصحابة مثل عمر بن الخطاب (ت ٢٣ه)، وأبي بن كعب (ت٣٠ه)، وعبد الله بن مسعود (ت٣٥ه)، وعلي بن أبي طالب(ت ٤٠ه) ،وأبو موسىٰ الأشعري (ت٤٣ه) ،و ابن عباس(ت٦٨ه) رضي الله عنهم بأن القرء: الحيض.

الثاني: و قال زيد بن ثابت (ت ٥٥ه)، وعائشة (ت ٥٨ه)، ومعاوية بن أبي سفيان (ت٦٠ ه)، وعبد الله بن عمر (ت ٧٤ه)رضي الله عنهم اجمعين، القرء: الطهر[40].

و نستنتج من هذا التفسير اللغوي المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة بعض النقاط التالية:

1- ما فسّر رسول الله للصحابة مفردات القرآن إلا ما سئلوه عنها.

2- فمن العلماء من ذهب إلى القول بأنه فسّر كل القرآن، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يفسّر منه إلّا القليل. والتوسط في القول بأن الرسول فسّر من القرآن بالقدر الذي أشكل على أصحابه.

3- وقد وقع خلاف محقق بين الصحابة في تفسير مفردات القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

4- وقد وضع القرآن الكريم للكلمات العربية بعض مدلولات لم يعرفها العرب من قبل.

5- ولو كان عند هؤلاء الصحابةالكرام خبر عن الرسول ﷺ في تفسير هذه اللفظة لنقلوه، ولما لم يكن عند هم ،اجتهدوا في بيان المراد معتمدين في ذلك على لغتهم. إن الصحابة اجتهدوا في معرفة ما لم يرد في سنّة النبيّ الكريم بأسرار اللغة و مدلولاتها المختلفة وبمعرفتهم بأحوال العرب وعاداتهم وقوة الفهم و سعة الإدراك.

ثم لحق بالصحابة أعلام التابعين ممن تتلمذ عليهم، وبرز في علم التفسير؛ كسعيد بن جبير(ت ٩٤هـ) و مجاهد بن جبر (ت١٠٤هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ)،و غيرهم- ولقد استمر الاجتهاد في التفسير في جيل التابعين وأتباعهم ،حيث اعتمد كل هؤلاء على اللغة في بيان التفسير . ثم حمله جيل أتباع التابعين بعض أعلام المفسرين؛ كإسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٨هـ)، وعبد الملك ابن جريج المكي (ت ١٥٠هـ) ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني (ت ١٨٢هـ)، ويحيى بن سلام البصري (ت ٢٠٠هـ). ومن الأمثلة التي وقع فيها الخلاف بين هؤلاء في طبقاتهم الثلاث، اختلافهم في لفظ (عسعس)في قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [41] فقد ورد عنهم في ذلك معنيان:

الأول : روي عن علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ)، و ابن عباس (ت٦٨هـ)، والضحاك بن مزاحم (ت١٠٥هـ)، وقتادة (ت ١١٧هـ)، وابن زيد (ت ١٨٢هـ) أنهم قالوا: والليل إذا عسعس أي أدبر.

والثاني:و قال مجاهد (ت١٠٤هـ)، والحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وعطية العوفي(ت ١١١هـ) : والليل إذا أقبل[42].

منهج السلف في الاستشهاد اللغوي:

نجد طريقين في البيان اللغوي للقرآن عند العلماء القدامى :

الطريق الأول: أن يذكروا معنى اللفظة في اللغة دون أن ينصّوا على ما يدّل عليها من شعر أو نثر. هذا هو الأغلب فيما ورد عنهم من تفسيراتهم اللغوية، إذ ينص المفسر منهم على معنى اللفظ، دون أن يستشهد لتفسيره هذا[43]. نجد كثيرا من الأمثلة عندهم ،نحو تفسير ابن عباس (ت ٦٨هـ) في معنى كلمة (لا وزر) من قوله تعالى ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[44]،قال: (لا حصن ولا ملجأ)، وأيضا روي عنه، قال: (لا حرز) [45] .و هذا أحد معاني اللفظة في اللغة.

الطريق الثاني: أن يستشهدوا من كلام العرب المنظوم و المنثور لمعنى لفظة القرآن. أمّا الاستشهاد من الشعر، فنقل السيوطي (ت ٩١١ هـ) قول ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذي أنزله

الله بلغ ة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرف ة ذلک من ه"[46]. وقوله: "اذا سألتموني عن غريب القر آن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب " و كذلک يقول : "إذا قرأتم شيئا، فلم تدروا ما تفسيره فالتمسوه في الشعر،فإنه ديوان العرب"[47].

إن عبدالله بن عباس (ت ٦٨ه) كان يسأل عن معين ة من القرآن الكريم، فيفسرها للناس، ويستش هد على تفسير ها بأبيات من الشعر العربي . وقد جمعت هذه الأسئلة و إجابتها في كتاب مستقل باسم "سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس" نشره الدكتور إبراهيم السامرائي ببغداد سنة ١٩٦٨م.و أقتصر على مثال واحد منه:

قال نافع : "يا ابن عباس ! أخبرني عن قول الله عزوجل : ﴿ وَابْتَغُوا إليهِ الْوَسِيلَةَ﴾[48] "، قال: "الوسيلة : الحاج ة ". قال :"أو تعرف العرب ذلک"؟ قال :"نعم ، أما سمعت عنترة العبسي (ت٦١٥ م)، وهو يقول :

إن الرجال لهم إليک وسيلة إن يأخذوک تكحَّلي و تخضبي

وهكذا يمضي نافع يسأل ،وابن عباس يفسر، ويستش هد على تفسير ه ببيت من الشعر[49].هناك خلاف بين العلماء المفسرين و اللغويين في تقييد الاستشهاد اللغوي بالشعر. إن علماء اللغة قد توقفوا حول منتصف القرن الثاني الهجري، فقبلوا كل ما كان قبل ذلک سواء أكان شعرا أم نثرا عن البدو أو عن الحضر، فهذا العصر الطويل المدي الذي يمتد قرنا ونصف قرن في الإسلام وربما امتد قرونا قبل ذلک في الجا هلية اعتبرت المادة المروية مرهكلها وسيلة صالحة للاستشهاد[50].

هناك صورتان للاستشهاد من الشواهد الشعرية التي يستدل بها مفسّرو السلف واللغويون:

الصورة الأولى– أن يورد المفسّر الشعر المستشهَد به مكتفيا فيه بورود اللفظ المستشهد له و إن لم يتضح معناه في بيت الشعر الذي استعين به على فهم معنى اللفظ. وأكثر الشواهد الشعرية المستشهد بها جاءت على هذه الصورة، كما قال أبو

عبيدة(ت٢١٠هـ) ،على سبيل المثال، في قوله تعالى: ﴿وَامْرَتِي عَاقِرٌ﴾[51]، العاقر: التي لا تلِد، والرجل العاقر: الذي لا يولد له،قال عامر بن طفيل:

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً جباناً فما عذري لدى كلّ محضر [52]

إن أبا عبيدة(ت ٢١٠هـ) فسّر العاقر في الآية بأنها التي لا تلد، ثم استدلّ لذلك التفسير بهذا البيت، غير أن اللفظ في البيت غير مفسر، بل هو محتاج إلى تفسير.

الصورة الثانية– أن يكون سياق الشعر مبيناً عن معنى اللفظ و موضّحاً لمعنى اللفظ القرآني بذاته،كما قال ابن قتيبة(ت ٢٧٦هـ) ،على سبيل المثال، في قوله تعالى: ﴿حَتّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[53]، أي: يضع أهل الحرب السّلاح، قال الأعشى:

و أعددتُ للحرب أوزارها رماحاً طوالاً، وخيلاً ذكوراً

و من نسج داود يُحدى بها على أثر الحيّ ، عيراً فعيراً [54]

إن الأعشى في هذا البيت يبيّن مدلول اللفظ الذي ذكره. قد استفاد المفسرون و فقهاء اللغة بالشاهد الشعري في بيان الأسلوب القرآني.

أما الاستشهاد بالنثر العربي فهو أن يعتمد المفسّر على شيء من كلام العرب المنثور أو ينصّ على لغة القبيلة التي نزل القرآن بلفظها. و نجد كثيراً من الأمثلة عند الصحابة إذ وقع لبعض منهم عدم معرفة لمعاني ألفاظ القرآن و استشهدوا من لغة قبيلة كما روي عن ابن عباس أنه أبصر رجلاً يسوق بقرة، فقال: من بعلُ هذه؟ فدعاه، فقال: من أنت؟ قال: من أهل اليمن. فقال: هي لغة ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾[55] أي: ربّاً[56].و روي أيضاً عنه، قال: عرفت المفهوم الصحيح لقول تعالى (فاطر السموات)حين جاء إليّ أعرابيان بقضية نزاع بئر بينهما فقال أحد هما عن اثبات الملكية في حقه "أنا فطرتها" فحلت مشكلتي في فهم معنى هذه الكلمة وفهمت المفهوم الصحيح لها ، أي: ابتدأتها[57].إن المفسرين و اللغويين استشهدوا بالنثر في تفسير كلمات القرآن سوا أن ينصّوا على لغة عامة العرب أو على لغة القبيلة التي نزل بها القرآن.

قواعد التفسير اللغوي :

درج الصحابة رضي الله عنهم في فهم كثير من معاني القرآن على ما عرفوه من لغتهم التي نزل بها القرآن، ووجوه مخاطباتها.ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ينكر عليهم

ذلك التعويل على اللغة، كما كانوا يستدلون أحيانا على تقرير المعنى بشيء من أشعار العرب، وعلى هذا السبيل جرى التابعون و أتباعهم دون نكير.لا يجوز للمفسر أن يخرج باللغة عن أقوال السلف من الصحابة و الأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة كما قال الطبري (ت٣١٠هـ) في هذه القاعدة :

"فإذ كان ذلك كذلك، فأحقُّ المفسرين بإصابة الحق –في تأويلِ القرآنِ الذي إلى عِلم تَأويله للعباد السبيلُ– أوضحُهم حُجة فيما تأوّل وفسَّر، مما كان تأويله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه: إمَّا من جهة النقل المستفيض، فيما وُجِد فيه من ذلك عنه النقلُ المستفيض، وإمَّا من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النَّقلُ المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته؛ وأصحُّهم برهانًا –فيما ترجَم وبيّن من ذلك– مَا كان مُدركًا علمُه من جهة اللسان: إمّا بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإمّا من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنًا من كان ذلك المتأوِّل والمفسِّر، بعد أن لا يكون خارجًا تأويلُه وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة"[58].

لا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى على مجرد الاحتمال النحوي أو اللغوي، إن للقرآن عرف خاص ومعانٍ معهودة لا يناسبه أن نفسره بغيرها فإن نسبة معانيه إلى باقي المعاني كنسبة ألفاظه إلى باقي الألفاظ ، بل أعظم. حكما أنه ألفاظه ملوك الالفاظ وأفصحها وأجلها فكذلك معانيه. فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به ولا يحمل على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال اللغوي النحوي [59]. بيّن ابن القيم (ت٧٥١هـ) هذا الضابط بالتفصيل مع الأمثلة من القرآن الكريم واعتبره من أهم أصول التفسير[60].

كل تفسير لغوي وارد عن السلف يُحكم بعربيته، وهو مقدم على قول اللغويين . كلّ ما ورد عن السلف الكرام من تفسير ألفاظ القرآن، فإنه جار على لغة العرب، وهو حجة يجب الاحتكام إليه، ولا يصحّ ردّه ولا الاعتراض عليه [61]. نجد بعض اللغويين يذكر أن بعض الألفاظ لم تعرف دلالتها إلا عن المفسرين،كما قال ابو جعفر النحاس(ت٣٣٨هـ) في تفسير كلمة(تَفَثَ) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم ﴾[62] :عن ابن عباس قال : "التفث الحلق والتقصير والرمي والذبح والأخذ من الشارب

واللحية ونتف الإبط وقص الإظفار" ثم يقول: " وكذلك هو عند جميع اهل التفسير أي الخروج من الإحرام إلى الحل لا يعرفه أهل اللغة إلا من التفسير "[63].

كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء و هذه قاعدة تبطل تأويلات الباطنية والعقايد الكلامية المخالفة لعقيدة السلف والتفسيرات الاشارية ، والتكهنات المبنية على حساب الحروف والجمل [64]. قد نقل القاسمي(ت١٣٣٢هـ) نماذج كثيرة للتأويلات الباطنية والكلامية ومنها: تفسير أحد من أرباب الكلام من ادعى جواز نكاح الرجل من تسع نسوة حرائر. مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ.. ﴾[النساء: ٣] ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع.ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالا لأن الله قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣] فلم يحرم شيئا غير لحمه. ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس[65].

إنه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم. فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة. وإن لم يكن ثمّ عرف، فلا يصح أن يجري في فهمها ما لا تعرفه. وهذا جار في المعاني والألفاظ والأساليب. مثال ذلك: أن معهود العرب أن لا ترى الألفاظ تعبدا عند محافظتها على المعاني، وإن كانت تراعيها أيضا، فليس أحد الأمرين عندها بملتزم، بل قد تبنى على أحدهما مرّة، وعلى الآخر أخرى، ولا يكون ذلك قادحا في صحة كلامها واستقامته [66]. إن اهل البدع حرفوا معاني قول الله عز وجل ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وقوله تعالى ﴿لما خلقت بيديّ﴾ وما شابه ذلك النصوص وزعموا أن اليد هنا بمعنى النعمة. قال الأشعري(ت هـ):"وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل:عملت كذا بيدي ويعني به النعمة، وإذا كان الله عز وجل إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهوما في كلامها،و معقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل﴿بِيَدَيّ﴾ النعمة،و ذلك أنه لا يجوز أن يقول القائل: لي عليه يد بمعنى:لي عليه النعمة"[67].

و بجملة القول يجب أن يفسر القرآن بمقتضى اللغة يراعى المعنى الأغلب المشتهر دون النادر القليل[68]. نجد الخلاف،على سبيل المثال،عند المفسرين في تفسير كلمة(برداً) في قولهتعالى: ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾[69] البرد له معنيان: الأول: ما يبرد حر الجسم ، وهو المشهور المتداول المتعارف عليه عند العرب. والثاني: النوم ، وهو قليل الاستعمال في لغة العرب ، فتحمل الآية على المعنى الأول دون الثاني[70].لأن" التأويل في القرآن على الأغلب الظاهر من معروف كلام العرب المستعمل فيهم" [71]. فلا يجوز لمفسرالقرآن أن يخرج باللغة عن أقوال السلف من الصحابة و الأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة كما لا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى على مجرد الاحتمال النحوي أو اللغوي.

الهوامش والمصادر والمراجع

1- سورة يوسف ، الآية : 2

2- سورة الزمر، الآية : 28

3- سورة الزخرف ، الآية : 3

4- سورة طه ، الآية : 133

5- سورة ص ، الآية : 29

6- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى : الموافقات، تحقيق: محى الدين عبد الحميد ،مكتبة محمد على صبيح ، مصر، 2/45-46

7- سورة التكوير ، الآية :7

8- الطبري ،محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ،مصر،ط3 ،1388هـ ، 30/69

9- ابن فارس: مقاييس اللغة،تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، 3/35

10- سورة النباء ،الآية :34

11- الطبري،محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، 30/19

12- : ابن فارس: مقاييس اللغة ، 2/307

13- سورة ال عمران' الآية:191

14- ابو عبيدة :مجاز القرآن ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1401هـ ،1/732

15- سورة الاسراء، الآية : 85

16- الصنعاني ، محمد بن اسمعيل : تفسير غريب القر آن ، تحقيق : محمدصبيحي بن حسن حلاّق(مقدمة المحقق)، دار ابن كثير ، دمشق،ط 1،1421هـ ، ص: 6

17- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي ، ط ١، دار القلم بدمشق ، ص: 55

18- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى : الموافقات ،تحقيق: محى الدين عبد الحميد ، 102/2

19- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل دار عالم الكتب، بيروت، ط 7، 1419هـ، 1 /449 -450

20- ابن فارس :الصاحبي في فقه اللغة ،تحقيق: السيد أحمد صقر ،مكتبة مصطفى البابي الحلبي ،القاهرة ،ص: 50

21- سورة الأنبياء،الآية :87

22- الأزهرى: تهذيب اللغة،تحقيق: عبد السلام هارون،دار المصرية للتأليف والنشر،مصر، 20/9

23- الطيار ،مساعد بن سليمان بن ناصر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم ،دار ابن الجوزي ،المملكة العربية السعودية، ط 1،ص: 50

24- سورة النحل،الآية : 44

25- الصنعاني ، محمد بن اسمعيل :تفسير غريب القر آن ، تحقيق : محمدصبيحي بن حسن حلاّق(مقدمة المحقق)،ص: 7

26- راجع للتفصيل إلى كتاب التفسير من: صحيح البخاري و سنن الترمذي و سنن النسائي الكبرى

27- سورة الحج ،الآية :72

28- الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري : المستدرک على الصحيحين ، دار الفكر ، بيروت، 1978م،391/2

29- سورة الواقعة،الآية : 22

30- الطبري،محمد بن جرير :جامع البيان عن تأويل آى القرآن، 632/11

31- سورة البقرة،الآية: 124

32- الطبري،محمد بن جرير :جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، 578/1

33- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم،(رقم الحديث: 2551)

34-سورة البقرة ،الآية :187

35- البخارى، محمد بن اسمعيل :الصحيح البخاري ، رقم الحديث : 4509

36- سورة الأنعام ،الآية : 82

37-سورة لقمان ،الآية : 13

38- البخارى، محمد بن اسمعيل :الصحيح البخاري، رقم الحديث : 4776
39- سورة البقرة،الآيۃ: 228
40- راجع للتفصيل: الطبري ،محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آى القرآن، 500/14-510
41- سورة التكوير ،الآيۃ : 17
42-راجع للتفصيل : الطبري،محمد بن جرير :جامع البيان عن تأويل آى القرآن، 78/30-79
43- الطيار ،مساعد بن سليمان بن ناصر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص: 96
44- سورة القيامة، الآيۃ : 11
45- الطبري،محمد بن جرير :جامع البيان عن تأويل آى القرآن، 181/29
46- السيوطي، جلال الدين: الاتقان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، 1407ھ، 97/1
47- المرجع السابق ، 68/2
48- سورة المائدة ،الآيۃ :35
49- رمضان عبد التواب، الدكتور: فصول في فقه العربية، ص: 110
50- محمد عيد، الدكتور: الاستشهاد والاحتجاج باللغة ،عالم الكتب ،القاهرة، ط 3، 1988م ، ص: ١٢٣
51- سورة آل عمران،الآيۃ :40
52- أبو عبيدة: مجاز القرآن ،92/1
53- سورة محمد،الآيۃ : 4
54- ابن قتيبة: غريب القرآن ، ص: 409
55- سورة الصّفّت، الآيۃ : 125
56- السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور، 119/7
57- السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، 115/1
58- الطبري،محمد بن جرير :جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، 309/6
59- ابن القيم :بدائع الفوئد ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ، 27/3
60 - راجع المرجع السابق للتفصيل، 37/3-48
61- الطيار ،مساعد بن سليمان بن ناصر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص: 560-563
62- سورة الحج ،الآيۃ : 29
63- النحاس،ابو جعفر:معاني القرآن، 402/4
64- راجع للتفصيل- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى : الموافقات، 392/3-403
65- : القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل ،46/1- 48

66- راجع للتفصيل- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى : الموافقات، 2/ 70- 95

67- : الأشعري، ابو الحسن: الإبانة عن أصول الديانة ، جامعة الإمام محمد بن سعود، ص: 56

68- قواعد التفسير جمعا ودراسة: خالد بن عثمان السبت،1/ 213، دار ابن عفان

69- سورة النبأ، الآيتى :24

70- الطاهر بن عاشور:التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984 م ، 30/37-38

71- الطبري،محمد بن جرير :جامع البيان عن تأويل آى القرآن، 316/6